محمود محمد طه
رئيس الحزب الجمهوري

يقدم



الطبعة الثانية

جمادى الثاني ١٣٨٨ هـ
الموافق أغسطس ١٩٦٨ م

محمود محمد طه
رئيس الحزب الجمهوري

يقدم



الطبعة الثانية

جمادى الثاني ١٣٨٨ هـ
الموافق أغسطس ١٩٦٨ م

الاهــداء

الى الانسانية

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب خرجت الطبعة الاولى منه في مارس عام ١٩٦٠ ، وكان الناس يومئذ تحت وطأة « حكم العساكر » لاأحوجهم الله الى ذكراه بالخير ، وقشع الله ، عن امم الارض التى لاتزل بامثاله مرزوءة ، سحابة ظلمته وجهله •

ولقد خرج هذا الكتاب عقيب حادث فصل الطلبة الجمهوريين الثلاثة من المعهد العلمى ، وماصحب ذلك الفصل من تشويه شديد للفكرة الجمهورية • ولقد حاولنا تصحيح ذلك التشويه فلم يتيسر لنا النشر ، ولقد منعنا المحاضرات فى الاندية ، وفى دور العلم المختلفة •

خرج هذا الكتاب فى طبعته الاولى مركزا ، شديد التركيز ، مضغوطا ، كاشد مايكون الضغط ، ومع ذلك ، فهو الكتاب « الام » بالنسبة للحزب الجمهورى •• فيه كل مانريد ان نقول عن الاسلام ، فلم يبق امر مستأنف ، الا ان يكون زيادة شرح ، وزيادة توسيع لماجاء فية موجزا •

والآن ، وقد نفذت الطبعة الاولى ، منذ زمن بعيد ، فانا ندفع بالكتاب الى المطبعة لنخرج الطبعة الثانية ، من غير ان نجرى فيها تعديلا • اللهم الا ادخال العناوين الفرعية عليه ، لتكون للقارىء متوكأ ، يعينه على حسن متابعة معانيه الدقاق ، من غير املال ، ولا سأم •

والله ، وحده ، المسئول ان يجعل هذا الكتاب بشيرا بعودة الاسلام ، وعمدة لعودته ••

انه سميع مجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

«اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا»

صدق الله العظيم

مقـــــدمة

تعالوا الى كلمة سواء

ان الاضطراب الذى نشاهده فى عالم اليوم يرجع الى اسباب كثيرة ، ترجع جميعها الى سبب اساسى واحد ، هو مدى الخلف بين تقدم العلم التجريبى ، وتخلف الاخلاق البشرية .

ان العلم التجريبى الحديث قد رد مظاهر المادة المختلفة ، التى تزخر بها العوالم جميعها ، الى اصل واحد ، فاذا لم ترتفع قواعـد الاخلاق البشرية الى هذا المستوى ، فترد جميعها الى اصـــل واحد ، فأن التواءم بين البيئة الطبيعية ، وبين الحياة البشريـة ، سيظل ناقصا ، وسيبقى الاضطـراب الحـــاضر مهددا الحياة الانسانية على هذا الكوكب بالعجز ، والقصور ، فى اول الامر ، ثم بالفناء والدثور ، فى آخر الامر ..

العلم المادى التجريبى

اما عن العلم التجريبى فاستمع الى العالم العـــربى الكبير الدكتور احمد زكى يحدثك فى كتابه مع الله فى السماء تحت عنوان « لو انفرط هذا الكون » فيقول :ـ

(ثم نعود الى الكون ، ان هذه عناصر الارض ، وهـــذه مركباتها ، وهى كل شيء فيها ، وقد بناها بانيها من لبنات ثلاث : الكترونات فبروتونات فنيترونات .

وتحدثنا عن الكواكب السيارة ، فقلنا أن عناصرها من عناصر الارض ..

وتحدثنا عن النجوم ، فقلنا ان عناصرها من عناصر الارض ، تستوى فى ذلك نجوم فى مجرتنا هذه ، دنيانا ، سكة التبانــة ، ونجوم فى مجرات نركب اليها الضوء فلا نبلغها الا بعـد مئــات الملايين مـــن السنين ..

الكون اجمع أذن يتألف من عناصر هى بعض هذه التسعين .

الكون اجمع اذن يتألف من تلك اللبنات الثلاث ..

فلو اننا أمرنا الارض ان ينفرط عقدها : امرنا اجســام الانسان ان تنفرط ، واجسام الحيوان، واجسام النبات،واجسام الصخر بهذه الارض ، والصخور بهذه الكواكب ، وامرنا كـل غاز الشمس ان ينفرط ، وان تنفرط غازات النجوم جميعها ، ما قرب منها وما بعد ، واختصارا أن ينفرط كل شيء فى الوجود ، لنتج عـن انفراطه كومات هائلة ثـلاث من : الكترونـات ـ وبروتونات ـ ونيوترونات ، فهل فى معانى الوحـدة ابلـغ مـن هذا المعنى ؟ ونقول ثلاث لبنات ، وهــل هى حقا ثـلاث ؟ وفى الوقت الذى ترد فيه المادة الى ثلاث لبنات ، يرد العلماء «القوى»

الى أصل واحد : الضوء ، الحرارة ، الاشعة السينيه ، الاشعة اللاسلكية ، الاشعة الجيمية ، وكل أشعاع فى الدنيا ، كلها صور متعددة لقوة واحدة ، تلك القوة المغناطيسية الكهربائية ، انها جميعا تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها الا أختلاف موجة •

المادة ثلاث لبنات ، والقوى موجات متآصلات • •

ويأتى أينشتين ، وفى نظريته النسبية الخاصة ، يكافىء بين المـــادة والقـــوى • •

ويقول : ان المادة ، والقوى ، شىء سواء ، وتخرج التجارب تصدق دعواه ، وخرجت تجربة أخيرة صدقت دعواه بأعلى صوت سمعته الدنيا : ذلك انفلاق الذرة فى القنبلة اليورنيومية • •

المادة والقوى ، اذن ، شىء سواء •

فماذا بقى من اشياء هـــذا الكون ؟

بقيت الجاذبية ، ذلك الرباط الذى يربط الكون أجمـــع ، وبقى المكان SPACE ، وبقى الزمان ، ويحاول اينشتين ان يوحد بينهما ، ان يربط بينهما ،

وهو فى نظريته ، نظرية النسبية العامة ، يربط بين الزمان والمكان ، فيجعل منهما شيئا متواصلا ، غير متفاصل وفى نظريته الجديدة ، نظرية الحقل الواحد UNITED FIELD THEORY يهدف أينشتين الى أن يثبت ان القوى المغناطيسية الكهربائية ، تلك التى تتمثل فى الضوء والحرارة وصور الاشعاع عامة ، هى وقوى الجاذبيه شىء ســـواء

واقول السواء وما اعنى به السوية • ولـكنى لعنى انهما فى الاصول فى اعماق الحقيقة الطبيعية ، متواصلان ، قال اينشتين : « ان روح العالم النظرى لا تحتمل ان يكون فى الوجود الواحد شكلان للقوى لا يلتقيان ، شكل للجاذبيه القياسية ، وشكل للمغناطيسية الكهربائية »

وهكذا ، يتحلل المركب ، ويتبسط المعقد ، وتتشاكل الحقائق التى تستتر وراء الظواهر المختلفة ، وتتشابه ، وتتجمع كلها لتصب فى مجرى واحد ، تلك الوحدة العظمى التى تجرى فى الكون اجمع ، ولكن ، هل قضى الانسان من ذلك وطرا ؟

ان الانسان مازال يتساءل : وماوراء كل هذا ؟

ان الانسان ان كان وجد جوابا لبعض « كيف » تساءل عنه ، فهو مازال يتساءل «لماذا» وهو يسأل فى شىء من الهلع الفكرى ، والتقديس الدينى ، قال اينشتين : « ان اعظم جائشه من جائشات النفس واجملها تلك التى تستشعرها النفس عند الوقوف فى روعة امام هذا الخفاء الكونى ، والاظلام ، ان الذى لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حى كميت ، انه خفاء لانستطيع ان نشق حجبه ، واظلام لا نستطيع ان نطلع فجره ، ومع هذا نحن ندرك ان وراءه شيئا هو الحكمة ، احكم ما تكون ، ونحس ان وراءه شيئا هو الجمال ، اجمل ما يكون ، وهى حكمة، وهو جمال، لاتستطيع ان تدركهما عقولنا القاصرة، الا فى صور لهما بدائيه اوليه ، وهذا الادراك للحكمة ، وهذا

الاحساس بالجمال ، في روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق» ويقول اينشتين ، وهو اعلم علماء الارض في الكون وظواهره ، واحقهم بالكفر ، ان كان علم يدعو الى كفر ، واولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من اهل الشرق ، من اغفالهم ذكر الله ، يقول اينشتين : « ان الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمي ، وانبل حافز » وهو يقول : « ان ديني هو أعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو ايماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة ، مهيمنة ، تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام ، ان هذا الايمان يؤلف عندي معنى الله » !!) انتهى حديث الدكتور العالم احمد زكي

الفيزيقيا وسيلة الى الميتافيزيقيا

فأنتم ترون ، من هذا الحديث ، كيف رد العلم التجريبي الظواهر المختلفة الى أصل واحد ، وكيف حمل هذا العلم اكبر علمائنا المعاصرين ــ اينشتين ــ ليقول هذه الكلمة الخالدة ، التي أوردناها في آخر ما أقتبسناه من كتاب الدكتور احمد زكي ، فكأن العلم التجريبي لا يريد ان يكتفي بأن يظهر لنا وحدة العالم المحسوس ، وانما يذهب الى أبعد من ذلك ، فيرينا كيف ان العالم المحسوس ، اذا أحسن استقصاؤه ، يسوقنا الى عتبة

عالم وراءه ، غير محسوس ، ويتركنا هناك وقوفا ، فى خشوع ، واجلال ، نلتمس وسائل ، غير وسائل العلم التجريبى المادى ، بها نهتدى فى مجاهيل الوادى المقدس ، الذى يقع وراء عالم المادة

أقرأوا ، مرة ثانيه ، الكلمة الخالدة التى حمل العلم التجريبى المادى الحديث أكبر علمائنا المعاصرين على قولها !! وأقرأوا ، بشكل خاص ، قوله فيها « وهو أيمانى العاطفى ، العميق ، بوجود قدرة عاقلة ،مهيمنة ، تتراءى حيثما نظرنا ، فى هذا الكون المعجز للافهام » !!

ان العالم المادى انما هو بمثابة الظلال للعالم الروحى ، او قل بتمييز ادق ، ان المادة روح ، فى حالة من الاهتزاز تتأثر بها حواسنا ، وان الروح مادة ، فى حالة من الاهتزاز لا تتأثر بها حواسنا ، فالاختلاف ، على ذلك ، بين عالم المادة ، وعالم الروح هو اختلاف مقدار وليس أختلاف نوع ، وهذا يفتح الباب على الوحدة • • وحدة جميع العوالم

وحين ينتهى بنا العلم التجريبى المادى الى رد جميع ظواهر الكون المادى الى وحدتهى « الطاقة » ، يبرز لنا من جديد ، وبصورة خلابة ، العلم التجريبى الروحى ، ليتولى قيادنا فى شعاب الوادى المقدس ، الذى يقع وراء المادة ، ونستطيع ، بمواصلة البحث والاستقصاء ، فى العلم التجريبى الروحى ، ان نرى هل يمكن ان ترد ظواهر الاخلاق البشرية الى اصل واحد ، كما ردت ظواهر الكون المادى الى اصل واحد ،

ويتم بذلك الاتساق ، والتلاؤم ، بين سلوك البشر ، وبين البيئة المادية التى يعيشون فيها ، فينتهى بذلك القلق الحاضر ، ويعم الارض الســـلام ؟؟

الديــن والعلم توأمان

والعلم التجريبى الروحى ليس جديدا ، وانما هو قديم قدم العلم المادى « وبحق ، انهما توأمان ، ولــدا فى وقت واحــد ، ودرجا معا ، وظلا يتعاونان فى مدارج النمو ، فأن الانسان الاول عندما وقف على رجليه ، لاول مرة ، امام قوى الكــون المادى الهائلة امتلا قلبه بالخــوف ، والتقــديس ، فاما القــوى التى اخافته هونا ما ، واستطاع مناجزتها فقد هدته الى العلم التجريبى المادى ، وأما للقوى التى أسترهبته ، واستغرقته خشيتها ، فقد تزلف اليها ، وتملقها ، وهدته بذلك الى العلم التجريبى الروحى ونحن نسمى هذين التوأمين اليوم ، العلم ، والدين ، وقد قفــز العلم قفزة واسعة جدا فى العصر الحــديث ، وتخلف الــدين ، وبذلك حدث الاختلال فى التوازن ، وظهر الاضطراب ، والقلق الذى اشرنا اليه ، فى صدر هــذه الكلمة ، وليس الى اعــادة التوازن من سبيل، الا اذا قفز الدين هذه القفزه الجريئة نفسها، فرد قواعد الاخلاق البشرية الى أصلها الاصيــل ، عــلى نفس النحو ، وبنفس القدر ، الذى به ردت مظاهر الكون المادى الى اصلهــا الاصيل ٠٠

الفهم الذرى للدين يجعله يناسب عصر الذرة

•• نعم فالعلم التجريبى الروحى ـ الدين ـ ليس جديدا ولكنه سيعود جديدا ، لان عصر الذرة يتطلب فهما ذريا للدين ـ اعنى فهما دقيقا ، يصل الى نـواة الدين ، ويفجـر تلك النواة تفجيرا يسمع له دوى اعتى من دوى تفجير النواة المادية ، ولقد ساير الدين طفولة البشرية فى سحيق الاماد ، واحسن مسايرتها ، وكان بها رفيقا ، شفيقا ، يمد لها فى الأوهام ، والاباطيل ، التى كانت تكتنف تفكيرها ، ريثما ينقلها ، على مكث ، وفى أناة ، من وهم غليظ ، الى وهم ادق ، ومـــن باطل غليظ الى باطل ادق ، وهكذا ، دواليك ، حتى قطعت الانسانية عهد الطفولة ، ووقفت اليوم ، فى طور المراهقة ، تستشرف الى عهد الرجولة ، والاكتمال واصبح على الدين دور جديد ، هو ان يقفز بالانسانية عبر هـذا الطور القلق الحائر المضطرب ـ طور المراهقة ـ ليدخل بها عهد الرجولة ، والاكتمال • ولما كان الفرق بين الطفل والرجل كبيرا شاسعا ، فالرجل يتحمل مسئولية عمله ، بينما الطفل يطلب الحماية من تلك المسئولية ، فقد أصبح على الدين ، منذ اليوم ، الا ينبنى على الغموض ، والا يفرض الاذعان ، على نحو ما كان يفعل فى عهود طفولة العقل البشرى •• وانما يجب عليه ان يقدم منهاجا متكاملا للحياة ، يخـاطب العقـل ، ويحترمه ، ويحـاول اقناعه بجدوى ممارسة ذلك المنهاج فى الحياة اليومية، فى كل مضطربها

الارادة البشرية مادة الدين

والعلم التجريبي الروحي ــ الدين ــ مادته الطاقة ، أيضا ، ولكنها في هذه الحالة « الارادة » البشرية ٠٠ هل هي «مخيرة» ام « مسيرة » كالطاقة المادية ؟؟ ونحن الفنا ، عند التحدث عن الدين ، ان نتحدث عن أديان التوحيد والوثنيات التعدديات ، والحقيقة ان البشر ،في جميع عصورهم ،لم يعبدوا غير هذه الارادة البشرية ، وهذا يفسر لنا السر في ان جميع الاوثان كانت تنحت على شكل الهيكل البشرى ٠٠ وحتى اليوم ، وفي ارقى الاديان التوحيدية ، واعنى به الاسلام ، فأن ارقى معتنقيه يعبدون من دون الله الها آخر ، هو « ارادتهم البشرية » ولكنهم لا يفطنون الى ذلك ، ويظنون أنهم يحسنون صنعا ٠٠ ويسخرون من باقي عباد الله من اصحاب الملل الاخرى ٠ فلو انهم تفطنوا الى حقيقة أمرهم اذن لاشتغلوا ، عن الزراية على الآخرين ، بتحصيل مافاتهم ، هم ٠٠

ان العالم الطبيعي الكبير ، اينشتين ، يقف عاجزا ، حائرا ، على عتبة معضلة الجبر ، والاختيار ، ويقول ، فيما يحدثنا الدكتور احمد زكي : « ان ديني هو اعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية ، التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة ، القليلة ، التي تستطيع أدراكها عقولنا الضعيفة ، العاجزة ، وهو ايماني العاطفي ، العميق ، بوجود قدره عاقلة ، مهيمنة تتراءى ، حيثما نظرنا ، في هذا الكون المعجز للافهام ،

ان هذا الايمان يؤلف عندى معنى الله » ونحن، بعلمنا التجريبى الروحى ، نبدأ من حيث انتهى هذا العالم الجليل بعلمه التجريبى المادى ، ومع انه واضح ان اينشتين قد قرر الجبر ، وذلك بقوله: « وهو ايمانى العاطفى ، العميق ، بوجود قدرة عاقلة ، مهيمنة ، تتراءى، حيثما نظرنا،فىهذا الكونالمعجز للافهام»، الاانهواضح أيضا انه يتساءل تساؤلا صامتا : ماهى هـذه القـدرة العاقلة المهيمنة ؟؟ وما مدى هيمنتها ؟؟ ونعتقد ان الاجـابة على هذين السؤالين هى الاجابة على مسألة الجبر والاختيار ، وبها تـرد مظاهر الاخلاق البشرية الى اصل واحد ، كما ردت من قبل مظاهر الكون المادى الى اصل واحد •

قلنا ان العلم التجريبى المادى ، والعلم التجريبى الروحى توأمان ولدا فى يوم واحد ودرجا فى مراقى الحياة معا ، على توادٍ حينا وعلى تدابر حينا ، ولكن على تعاون فى جميع الاحيان ومادة العلم التجريبى المادى الكون المادى، وان كانت الارادة البشرية تتدخل فيه ، ووسيلته المعادلات الرياضية ، ومعدات التجارب فى المعـامل • ومادة العلم التجريبى الروحى الكـون المادى . والارادة البشرية معا، ووسيلته القرآن،ومعدات العبادة،فى الخلوات، والجلوات، وانتم ترون ، من هنا، ان الدين الذى اعنيه فى صدر حديثى هو الاسلام • واحب ان اعترف أنى بدأت عن تصديق، لانى ولدت من ابوين مسلمين ، ولكن التصديق لم يبلغ بى درجة التعصـب والعمى، فيلتوى بنتائج تجربتى وانما استطعت، بتوفيق الله ، ان اسير مفتوح العينين ، الى النتائج التى رسخـت تصـديقى

البدائى ، وانتقلت بى الى اليقين .

وسائل العلم التجريبى الروحى

ولا بد من كلمة قصيرة عن وسائل التجربة الدينية ، واولها وأولاها ، القرآن ، ونحن نسمع الناس يقولون ان القرآن كلام الله ، فما معنى هذا ؟؟ ان الله ليس كأحدنا ، وليس كلامه ككلامنا ، بأصوات تنسل من الحناجر ، فتقرع الآذان .. أن كلام الله خلق .. فالشمس تطلع ، فترسل الضوء ، والحرارة ، فتبخر الحرارة الماء ، وتثير الرياح ، وتحرك الهواء ، وتحمل الرياح بخار الماء ، فى سحب كثيفة ، الى بلد بعيد ، فينزل المطر ، فيروى الارض ، ويحييها بعد موتها ، فينبت الزرع ، وتدب الحياة ، بمختلف صورها ، وشكولها .. هذه صورة موجزة ، قاصرة، مفككة الحلقات ، لكلام الله . فالقرآن صورة هذا الكلام ، او قل هذا العلم ، مفرغ فى قوالب التعبير العربية .. ويظن كثير من كبار العلماء ان القرآن هو اللغة العربية، وذلك خطأ شنيع .. وهو خطأ جعلهم يلتمسون معانى القرآن فى اللغة العربية ، فانحجبوا بالكلمات ، وهم يظنون انهم على شىء .. واللغة اساسا، نشأت بدوافع الحاجة اليومية، فى الحياة الجسدية فهى ، مهما تطورت ، فانها تعجز ، كل العجز ، عن تحمل معنى كلام الله . وهى ، على خير حالاتها، لاتقوم منه الا مقام الرمز، والاشارة .. والقرآن لا يدع لنا مجالا للشك طويلا ، فهو يقول « الم * ذلك الكتاب لاريب فيه، هدى للمتقين» والاشارة هنا « بذلك » الى « الم »

ثم تجىء الوسيلة الثانية ، وهى تحقيق « لا اله الا الله محمد رسول الله » وتحقيقهايبدأ بالثقةبمحمد، وبتصديقهالتام، وبتقليده المتقن ، فى اسلوب عبادته ، وفيما تيسر من اسلوب عادته ، ويشمل تقليده كل ما صح عنه ، بعد بعثه ، وقبله ، اثناء تحنثه فى غار حراء، ولست أريد ان اطيل هنا، فان الايجاز فى ذلك يكفى ، على الاقل فى هذه العجالة ، وقد اعود فى وقت آخر ، ومجال آخر ، للافاضة فى القول ..

قلت ان مادة العلم التجريبى الروحى الكون المادى ، والارادة البشرية .. والحق ان عناية العلم الروحى بالكون المادى ، فى جميع صوره ، هى فى مرتبة الوسيلة ، فى حين ان عنايته بالارادة البشرية فى مرتبة الغاية ، ولذلك يقول القرآن « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » وفى العلم الدينى ان الارادة البشرية هى صورة مصغرة للكون المادى ، المنظور منه ، وغير المنظور . فنحن كلما كونا لافكارنا صورة صحيحة عن الكون المادى ، كلما انبعثت ، بمقابل هذه الصورة الكونية، صورة تضارعها، فى الصحة والدقة، عن حقيقة ارادتنا، أو قل شخصيتنا الفردية ، ولذلك فان القرآن يقول « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » بنفس الصيغة التى يقول لنا بها « واقم الصلاة » ..

ماهى الارادة البشرية

ويمكن القول اذن بأن موضوع العلم التجريبى الروحى هو

الارادة البشرية • • فما هي هذه الارادة البشرية ؟؟ سنرجيء الاجابة على هذا السؤال الى وقت قريب ، ونعالج في ايجاز الاجابة على تساؤل العالم الكبير أينشتين ، ـ ماهي هذه القدرة العاقلة المهيمنة، وما مدى هيمنتها؟ فأما السؤال الاول فان القرآن يخبرنا بأنها ذآت الله « أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله ، وهم داخرون ؟؟ »

وأما السؤال الثاني فأن القرآن يجيبنا عليه « اني توكلت على الله ، ربي وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على سراط مستقيم » وهكذا فان هيمنته تعالى على الوجود هيمنة تامة ، لايخرج عنها صغير ، ولا كبير ، من الخلائق ، في دقيق ، ولا جليل ، من حركاته ، وسكونه • •

ارادة الحياة دون ارادة الحرية

ولكن الله تعالى سير الجمادات ، والغازات ، والسوائل ، تسييرا قاهرا ومباشرا ، ثم خلق الحياة في مراتب النبات ، والحيوان ، فسيرها « بأرادة الحياة » ، وهي ارادة تعمل بدوافع البقاء للاحتفاظ بالحياة • • وقانونها أجتلاب اللذة ، ودفع الالم ، واصبح تسيير الله تعالى للمخلوقات في هذا المستوى من وراء حجاب « ارادة الحياة » التي تتمتع بما يسمى الحركة التلقائية ، لان دوافع حركتها ، وقوى حركتها كالمودعة فيها • • ثم لما أرتقى الله تعالى بالحياة الى مرتبة الانسان زاد عنصر جديد على « أرادة الحياة » ، هذا العنصر هو « أرادة الحرية » ، وهو عنصر يختلف عن ارادة الحياة اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع • ثم

سير الله تعالى البشر بأرادة الحياة ، وأرادة الحرية معا ، واصبح بذلك تسييره أيانا غير مباشر ، وتدخله فى أمرنا ، هو من اللطف والدقة ، بحيث تورطنا فى الوهم الاكبر ، وذلـك باعتقادنا أننا نملك أرادة حرة ، مستقلة بالترك او العمل .. واليكم آيـة هى آية فى الدلالة على لطف تدخل أرادة الله فى توجيه ارادتنا : « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولـو اراكهم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الامر، ولكن الله سلم، انه عليم بذات الصدور* وأذ يريكموهم ، أذ التقيتم ، فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله امرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور » فانظـروا الى هذا اللطف اللطيف من جانب الارادة ألالهية القـديمة ، أذ تتدخل فى تسيير الارادة البشرية المحدثة !!

الارادة البشرية هى ارادة الحرية

فالنبى يرى اعداءه فى منامه قليلين ، فيصمم عـلى مقاتلتهم ، ولو رأهم غير ذلك ملقاتلهم، ثم ، عند اللقاء، يرى فريق المؤمنين فريق المشركين قليلا ، فيصمموا على قتالهم ، ويرى فريق المشركين فريق المؤمنين قليلا، فيصمموا، بدورهم، على قتالهم، والله هو الذى يرى النبى اعداءه ، فى منامه ، قليلا ، والله هو الذى يرى كل فريق من الفريقين اعداءه قليلا، ليقضى الله أمراكان مفعولا. كل ذلك من غير أن تنزعج الارادة البشرية ، ومن غير ان تشـعر بتدخل خارجى فى أمر من أمورها ، فالارادة البشرية هى « ارادة الحرية » هذه ، وبها تميز الانسان عن الحيـوان ، وهى الارادة التى بممارستها عصى آدم ربه ، اذ نهاه عن أكل الشجرة ، فقال

الله تعالى فيه « فاكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى » وقال تعالى عنه محذرا رسوله من أستعمال هذه الارادة الخادعة ، استعمالا مخدوعا ، كما اتفق لابيه من قبل ، « فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما • ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما • » بدأ الآية بقوله « فتعالى الله الملك الحق » ، تذكيرا بأن الله متفرد بالارادة الكاملة ، وان الارادة البشرية يجب أن تذعن لارادته ، وتنقاد ، عن استسلام ، وعن رضا ، فلا تعجل أمرا قبل ان يجيء وقته ، لان « الله لا يعجل بعجلة احدكم » كما قال المعصوم • والارادة البشرية ، أو « ارادة الحرية » ، قبس من الله العظيم ، واليها الاشارة بقوله تعالى « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين • فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » فكلمة « سويته » اشارة الى « ارادة الحياة » وعبارة « ونفخت فيه من روحى » اشارة الى « ارادة الحرية » • •

معانى القرآن صور تؤدى بالكلمة

واحب ان انبه القارىء الى ماسبق تقريره عن القرآن من انه كلام الله بمعنى أنه صورة لفظية لايجاد الله الوجود ، وخلقه الخلق فى الزمان والمكان ، والآيتان السابقتان مثل بليغ فى هذا • فان الاشاره الى « الطين » تعني الخلق فى طور الجمادات ، والسوائل ، والغازات ، تلك التى قلت ان الله سيرها تسييرا

مباشرا ، والاشارة بكلمة « سويته » تعنى الخلق ، فى طــورى النبات ، والحيوان ، بجميع صوره ، وهو ما قلنا ان الله سيره، بارادة الحياة ، تسييرا شبه مباشر ، والاشــارة بقوله « ونفخت فيه من روحى » تعنى الخلق فى مرتبة الانسان ؛ وهو ما قلنا ان الله سيره ، بارادة الحرية ، تسييرا غير مباشر • • وهذه الآيات الثلاث أوضح فى الدلالة على حقيقة القــرآن ، استمعوا اليها « الذى أحسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ، ونفخ فيه مــن روحه ، وجعل لكم السمع ، والابصار ، والافئدة ، قليلا مـــا تشـــكرون »

وهذا الخلق ، والايجاد ، استغرق آمادا سحيقة ، فى الزمان والمكان ، وهو صورة من التطور الــذى يتبع بعضه بعضا ، فى حلقات متصلات ، والتسيير الذى أشرنا الى أنه شــبه مباشر فى مرتبة النبات ، والحيوان ، وغير مباشر فى مرتبة الانسان ، انما هو بالصراع بين الاحياء فيما بينها ، وبين الاحياءوالبيئة الطبيعية التى وجدوافيها • وارهدة الحرية ماذا تريد ؟؟ تريد الحريــة • •

والحرية المطلقة من كل قيد ، ولكن الحريــة لها ثمن ، وهــو ان يتحمل الحر نتائج عمله ، والااصبحت الحريــة فوضى •• وادنى مراتب الحرية المطلقة هى ان يفكر الرجل كما يريــد ، وان يقــول كما يفكر،وان يعمل كما يقول،بشرط الاتتدخل حريته فى حريات الاخرين •

ولما كانت الحياة مسيرة بارادة الحياة ، قبل ظهور البشر على مسرحها ، كان قانونها اللذة ، بكل سبيل ، ثم لما ظهر البشر ، ودخلت ارادة الحرية لتعمل عملها فى التسيير ، ظهر المجتمع البشرى وظهرت القيم ، التى تجعل الفرد يضحى باللذة الحاضرة ، فى سبيل لذة مرتقبة ، أو يضحى باللذة الحسية ، فى سبيل لذة معنوية ، وبمعنى اخر ، دخل تشريع الحلال والحرام ، أو ، ان اردت الدقة ، فقل العرف الذى يحرم امورا ، ويحلل امورا اخرى ، فى سبيل غاية بعينها ..

نشأة المجتمع والقانون ونشأة الاسلام

والقصة ، فى ايجاز ، هى ان الفرد البشرى لما وجد نفسه امام قوة طبيعيه عنيفه هائلة ، لاقبل له بها ، وضح له انه لابد له من الالتجاء الى جملة حيل بها يستطيع ان يحافظ على حياته ، فبنى البيوت فوق الاشجار ، وعلى قمم الجبال ، وفى الاماكن المحصنه الاخرى ، واتخذ الآلة ، من الخشب ، والحجر ، وادخر طعامه ثم اهتدى الى اكبر اختراع فى الوجود ، وهو المجتمع .. ولكى يكون المجتمع ممكنا قام العرف ، الذى هو القانون الاول ، ولربما يكون اول عرف نشأ هو العرف الذى ينظم العلاقات الجنسية ، فيحرم الاخت على الاخ ، ويحرم البنت على الاب ، ويحرم الام على الابن ، الخ الخ .. واعان هذا العرف على تهدئة الغيرة الجنسية ، التى كانت تفرق الاسرة البشرية كلما بلغ الابناء فيها مبلغ الرجال . فقد اصبح ، بعد هذا العرف ، من الممكن ان يتعايش فى منزل واحد ، وفى منازل متجاورة ، الاب ، والابن

البالغ ، والصهر ، والابن المتزوج ، وكل منهم آمـن على زوجته مـن الاخـرين . ولربما يكون العرف الذى ينظم احترام الملكية الفردية قد نشأ مع هذا العرف ، من الوهلة الاولى . فانـه ، فى المجتمعات البدائية، لا فرق ، كبيرا ، بين ملكية الزوجة ، وملكية الآلة ، او الكهف ، واذا كان لابـد للمجتمعات الصغيرة ان تعيش فى وئام ، تصيد معا ، وتحارب معا ، وتقابل صروف الايام متحده ، فانه لابد من هذين العرفين اللذين ينظمان السلوك فى الجماعة ويصونان كيانها . وليـس معنى هـذا ان المجتمعات نشـأت بصورة واحدة فى كل مكان ، ولكنه ، مما لاشك فيه ، ان المجتمع البشرى ، حيث نشأ ، فقد نشأ حول طائفة من العادات ، والعرف ، الذى ينظم علاقة الافراد ببعضهم البعض ، وبهذا العرف دخلت ارادة الحرية فى صراع مع ارادة الحياة ، ذلك بأن الفرد البشرى قد رضى ، طوعا او كرها ، ان يتنازل للمجتمع عن قسط من حريته ليستمتع بباقيها ، بفضل حياته فى مجتمع يحميه ، ويعينه . وتنازله ، عن هذا القسط من حريته ، ينظمه العـرف ، وماتفرضه اوضاع مجتمعه ، واصبح عليه ان يسيطر علـى نفسه ، وان يمنعها ممـا يمنعها منه القانون ، الذى سنه مجتمعه ، . وكلما انتصر الفـرد ، فى هذا الصراع ، على غرائزه البدائية ، كلما قـويت ارادته ، وانتقلت لذاته ، مـن اللذة الحسية العاجلة المحـرمة ، الى اللذة الحسية التى ينظمها العرف ، ويقرها ، بعد استيفاء قواعـده ، او قد تنتقل لذته من حسية عاجلة ، الى معنوية عاجلة، او مؤجـلة كرضا المجتمع عنه ، وثنائه عليه ، او كرضا الالهةعنه ، ومجازاتها

اياه، فى هذه الحياة ، او فى الحياة المقبلة . ولما كان الفرد البشرى الاول غليظ الطبع ، قاسى القلب ، حيوانى النزعة ، فقد احتاج الى عنف عنيف لترويضه ، وكذلك كان العرف الاجتماعى شديدا ، عنيفا ، الى الحدود التى تضحى بحياة الافراد على مذابح معابد الجماعة ، استجلابا لرضا الالهة ، او دفعا لغضبها . وهذا العنف العنيف اضطر الفرد البشرى ليسيطر على نزعاته ، وليكبت فى صدره كثيرا من رغائبه التى لا يقره عليها العرف ، ولا ترضاها الالهة ، وفى نفس الوقت الذى خدم فيه العرف الاول الفرد بان قوى ارادته ، وسيطرته على نفسه ، خدم المجتمع بان صان حقوقه ، وجعل تماسكه ، وتضامنه ، ممكنا : ولقد سار المجتمع من تلك البداية سيرا وئيدا وسار معه الافراد ، وكلما تـرقى المجتمع ، كلما قلت التكاليف الباهظه التى يفرضها على حريات افراده،بواسطةعرفه، وقوانينه،وأديانه،وسنرى ذلك، بعد قليل ، عند الحديث عن مرحلتى اليهودية والاسلام . ومنذ نشأة العرف الاول نشأ الاسلام ، وذلك لان الفرد البشرى بدأ فى هذا الطور يدرك ان ارادته ليست حره ، وان كان هذا الادراك يكاد يكون لا شعوريا .. ولست اريد ان اتابع مراحل الاسلام من هذه البدايات ، ولكنى ساقفز قفزة واحدة الى مراحله الثلاث الاخيرة : اليهودية والمسيحية والاسلام ، فاتحدث عنها فى شىء يسير من الاطناب ، ذلك لان هذه العجالة لا تحتمل التطويل ، ولكنى ، قبل ان انصرف الى هذه المراحل ، اناقشها ، احب ان اقرر هنا ان الاسلام ، كدين ، فكرة واحدة كبيرة ، تشمل البداية

والنهاية ، وقد بدأ يوم بدأ الصراع بين ارادة الحياة، وأراده الحرية ، وهو ما اسميه بنشأة العرف ، وهذه الفكرة لا تزال تواصل سيرها ، وستبلغ نهايتها على هذا الكوكب يوم يحقق الافراد البشريون السلام ، كل مع نفسه، وذلك بتسليم ارادتهم المحدثة ، الى الارادة القديمة • وسنعود الى هذه العبارة فى نهاية هذه المجالة • ولتقرير ان الاسلام ، كدين فى عمر البشرية ، فكرة واحدة ، كبيرة ، تشمل البداية والنهاية، يمكن ان تنظر فى الاسلام فى عمر الفرد البشرى ؛ فانه من المقرر ان حياة الفرد البشرى تحكى ، بصورة عاجلة ، حياة النوع كله •• فالاسلام ، فى عمر الفرد البشرى ، يبدا بالقول باللسان ، والعمل بالجوارح ثم يترقى حتى يصبح اذعانا واعيا، وانقيادا راضيا، بارادة الله وحسن تدبيره • واول مراتب ترقيه ، بعد الاسلام ، الايمان، ثم الاحسان بمراتبه الثلاث ثم الاسلام من جديد وهذه الآيات الكريمات تفيدنا فى هذا الباب «قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم» فالاسلام هنا هو البداية التى هى مرحلة دون مرحلة الايمان • ثم اسمع هذه الاية الكريمة : « يايها الذين آمنوا اتقوا الله ، حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » والاسلام هنا هو نهاية المطاف ، ولقد ندب اليه المؤمنون فلم يطيقوه • فلما بدا عجزهم خفف الله عنهم فنزل « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا واطيعوا » فاستبدل لهم تقوى الله حق تقاته بما يطيقون ، واستبدل لهم الاسلام ، الذى هو تسليم الارادة المحدثة الى

الارادة القديمة : « ومن يسلم وجهه الى الله ، وهـو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى » استبدل لهم هذا الاسلام بالسمع للنبي، والطاعة ، وهي مرتبة سامية ، ولا ريب ، ولـكنها دون الاسلام الذى عناه الله بقوله « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الاخرة من الخاسرين »

الاسلام بين اليهوديه والنصرانية

وهذه الفكرة الاسلامية الكبيرة جاءت مـرحلة اليهودية فى طرف البداية منها ، وجاءت المسيحية فى طـرف النهاية ، وجـاء الاسلام وسطا بين اليهودية والنصرانية . فان المسيح قد قـال لتلاميذه : « لاتظنوا انى جئت لانقض الناموس ، او الانبياء .. ماجئت لانقض، بل لاكمل » ، ثم أخذ يعلمهم ، فقال : « سمعتم انه قيل عين بعين ، وسن بسن ، واما انا فاقول لـكم لاتقاومـوا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن ، فحول له الآخر ايضا.» فالمسيح ، فى هذا الحديث ، يعرض علينا طرف البداية ، والنهايـة فالعين بالعين ، والسن بالسن اقرب الى الطبيعة البشرية المبتدئـة ، واما عدم مقاومة الشر فهو غاية فى التسامح ، وهـو ادخـل فى نهايات سير النفس المرتاضة .

ولما كان الاسلام وسطا بين اليهودية ، والنصرانية ، كما يخبرنا الله تبارك وتعالى حين يقول : « وكذلك جعلناكـم امة وسـطا لتكونوا شهداء على الناس » فان القرآن قد جاء فى سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية وخصائص المسيحية ، فاسمعه يقـول « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح، فأجره على الله، انه

لايحب الظالمين » ثم قارن هذا بحديث المسيح السابق تجد ان «جزاء سيئة سيئة مثلها» تعبير شامل لقول التوراة الذى حكاه المسيح « عين بعين ، وسن بسن » وتجد ايضا قوله « فمن عفا ، واصلح فاجره على الله » ابلغ فى التسامح من قول المسيح « لاتقاوموا الشر » الوارد فى هذا الحديث ، وان كان للمسيح حديث اخر يرتفع الى مستوى «فمن عفا واصلح فاجره على الله» وذلك حيث يقول : « احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم • احسنوا الى مبغضيكم • وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم ، ويطردونكم • »

الاســـلام رسالتان

وكون الاسلام وسطا بين طرفين ، وجامعا لخصائص الطرفين ، من البداية والنهاية، جعل الاسلام نفسه ذا طرفين ، طرفا اقرب الى البداية ، وطرفا اقرب الى النهاية • ويلاحظ هذا بوضوح ؛ عند قراءه الاية السابقة، ومثيلاتها ، فى القرآن ، ولهذه الظاهرة معنى بعيد الاثر، وذلك ان الاسلام ، كما هو فى القرآن ، ليس رسالة واحدة ، وانما هو رسالتان : رسالة فى طرف البداية ،اوهى مما يلى طرف اليهودية • ورسالة فى طرف النهاية أو هى مما يلى طرف المسيحية • وقد بلغ المعصوم الرسالتين معا ، بالقرآن ، وبالسيرة التى سارها بين الناس ، ولكنه فصل الرسالة الاولى فى تشريعه، واجمل الرسالة الثانية، اللهم الا مايكون من امر التشريع المتداخل بين الاولى والثانية ، فان ذلك يعتبر تفصيلا فى حق الرسالة الثانية ايضا ، ومن ذلك ، بشكل خاص، تشريع العبادات جميعة •• وظاهرة الرسالة الاولى انها تبدا بقول « لااله الاالله »

محمد رسول الله »، وتنتهى بقول «لااله الاالله، محمد رسول» فهى كالصورة الفوتغرافية الثابتة ، الا قليلا ، واما ظاهرة الرسالة الثانية فانها تبدا بقول « لااله الاالله ، محمد رسول الله» وتنتهى بقول « لااله الاالله » المجردة ، فهى كالفلم السينمائى يتحرك من بداية الى نهاية ، فى تطور مستمر . ومعنى تجريد الشهادة معرفة مكانة الله ، من مكانة محمد . وهو تمام التوحيد

والله تعالى يقول لنبيه الكريم : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون . »

والمتامل فى هذه الاية الكريمة يدرك كيف ان الاسلام رسالتان ، فان أول الاية: «وانزلنا اليك الذكر» يعنى الرسالتين معا، الاولى والثانية . ووسط الآية : « لتبين للناس مانزل اليهم » يشير الى تفصيل الرسالة الاولى التى هى ، كما قلنا ، اقرب الى جانب البداية ، وآخر الاية : « ولعلهم يتفكرون » يشير الى محاولة الارتفاع من الرسالة الاولى ، الى مستوى الرسالة الثانية ، وذلك باتقان العبادة التى اختطها الله ، تبارك وتعالى، للمسلمين، او قل ان اردت الدقة ، « للمؤمنين » .

امة الرسالة الاولى المؤمنون

وحين يسمى القرآن المسلمين فى مرحلة الرسالة الموسوية «يهودا» ويسمى المسلمين فى مرحلة الرسالة العيسوية « نصارى » ، يسمى المسلمين فى مرحلة رسالة محمد الاولى « المؤمنين » ، أو « الذين آمنوا » اسمه : « قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة ، والانجيل ، وما انزل اليكم من

ربكم ، وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين * ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى ، من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون »

واسمعه ايضا : « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

والتفاوت بين مراحل الاسلام المختلفة : في الموسوية ، والعيسوية ، وفي رسالتي محمد ، انما هو تفاوت مقدار ، هو ترق من بداية غليظة ، بليدة جافية ، الى نهاية رفيعة ، ذكية ، رقيقة ، ويعكس لنا هذا الترقي التشريع المنزل بين البداية والنهاية ، فانه ، مما لاشك فيه ، ان التشريع ، سواء كان تشريع عادة ، او تشريع عبادة ، انما هو منهاج تربوي ، يرتفع بالمجتمعات ، وبالافراد ، من الغلظة ، والجفوة ، الى اللطف ، والانسانية ، وكلما كان الناس غلاظ الاكباد ، بليدي الحس ، كلما شدد عليهم في التشريع وكبلوا بالقيود والاثقال ولو ان الناس رعوا ما عليهم ، حق رعايته ، لما اعنتوا في امر من امورهم . والله تعالى يقول : « مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم ، وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » لكن حاجة الناس الى الترويض هي التي حرمت المحرمات ، وعزمت العزائم ، وجاءت المحرمات ، والعزائم ، وفق الحاجة اليها . فحين كان الاسلام في طور

اليهودية ، وحين كان الناس غلاظا ، جفاة ، قال الله تعالى عنهم : «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، واخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما » •

وقال عنهم : « واذ قال موسى لقومه يا قومى انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا انفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم • »

الناس مخفف عليهم كلما عقلوا

وحين بلغ الاسلام طور رسالة محمد الاولى قال تعالى : « قل لا اجد فيما اوحى الى محرما على طاعم يطعمه ، الا ان يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير فانه رجس ، أو فسقا اهل لغير الله به • فمن اضطر ، غير باغ ولا عاد ، فان ربك غفور رحيم » •

وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا انفسكم، ان الله كان بكم رحيما • »

فقد رد المحرمات على الامة المحمدية ، الى اربعة ، كلها خبيث، ثم تجاوز ، حتى عن هذه الاربعة للمضطر ، اذا لم يكن باغيا ، ولا غاديا ، فى حين انه شدد على اليهود ، حتى فى الطيبات • وقال للامة المحمدية : « ولا تقتلوا انفسكم ، ان الله كان بكم رحيما • » فى حين انه قال تعالى لليهود : « فتوبوا الى بارئكم ،

فاقتلوا انفسكم . » والمقصود ، بالطبع ، القتل الحسي .

الحرمة الحسيه مجاز لتنقية السلوك

ثم يطرد هذا التفاوت ، بين التشديد . والتضييق فى القاعدة ، والترخيص والتوسيع فى القمة ، حين يبلغ الاسلام بالناس طور رسالة محمد الثانية ، وهى قمة الاسلام ، ونهاية المطاف ، تقريبا ، فينتقل التحريم ، من الاعيان المحسوسة ، الى صور السلوك المعنوية . فاسمع القرآن الكريم يقول « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا ، واشربوا ، ولا تسرفوا ، انه لايحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها ، وما بطن ، والاثم ، والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون . » ويقول : « وذروا ظاهر الاثم، وباطنه، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون . » فاذا المحرم حقا ، وفى آخر الامر ، هو عيب السلوك ، ونقص الاخلاق ، وانما حرم المحسوس كوسيلة الى تحريم عيوب السلوك المعنوية ، وذلك على القاعدة الحكيمة فى التربية ، والتعليم التى تطالعنا بها الآية الكريمة : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟ » .

ولقد سبق القول بان رسالة محمد الثانية تجيء اقرب الى جانب النهاية ، منها الى جانب البداية ، أو هى مما يلى النصرانية.

والآيات الكثيرة التي تعنى بعيوب السلوك، والتي اوردت لكم منها نموذجا هنا ، أدخل في رسالة محمد الثانية ، منها في رسالته الاولى ، وهي تذكرنا بايات من اقوال المسيح. فقد قال في الاصحاح الخامس ، من انجيل متى مايلي » : « قد سمعتم انه قيل للقدماء لاتزن، واما انا فاقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . » وقال ايضا لتلاميذه : «اسمعوا ، وافهموا ، ليس مايدخل الفم ينجس الانسان ، بل مايخرج من الفم ، هذا ينجس الانسان . » يشير الى ان النجاسة الحسية، من التبول، والتغوط، لاتنجس الانسان، وانما تنجسه اخطاء اللسان. «وان تقولوا على الله مالاتعلمون » كما يقول القران ، في الاية الماضية . او « اذ تلقونه بالسنتكم ، وتقولون بافواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم .» كما يقول القران ايضا في موضع آخر . وعندما ينسحب التحريم من الصور الحسية الغليظة ، الى الصور المعنوية الدقيقة ، في عيوب السلوك والسيرة ، يواصل هذا الانسحاب حتى يصل خفايا السريرة ، وما يحوك فيها من خواطر الاثم ، كما تحدثنا الاية الكريمة ، التي سبقت الاشارة اليها : «وذروا ظاهر الاثم وباطنه» . ومع ان ترك ظاهر الاثم جاء بمكان الوسيلة ، والغاية منه ترك باطن الاثم ، الا أن رسالة محمد الاولى قد تجاوزت عن باطن الاثم لانه لم يكن الوقت يومئذ ناضجا لتحريمه ، وفي حديث نبوي شريف ان النبي قال : «ان الله تجاوز لامتي عما حدثت به نفوسهم، حتى يقولوا، اويعملوا . » اوكما قال

لكل معنى شكل هرمى

وليس هناك شك فى ان لكل معنى حسا،وبتعبير اخر ، فان للمعانى شكلا هرميا ، له قاعدة،وقمة، وكلما دق المعنى،دق الحس ، او قل كلمادق الشكل الهرمى دقت قاعدته،تبعا لذلك،وعلى نفس هذا الاعتبار لكل سريرة ، سيرة ، وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة ، لان الخطيئة انما تبدأ فى السريرة ، اولا ، أو قل فى الفكر ، ثم تخرج الى السيرة ثانيا ، أو قل الى صور السلوك المحسوسة ،بين الناس .

اسلوب القرآن فى التربية فريد

وأسلوب القرآن فىشفاء الناس من الخطيئة أسلوب عكسى يبدأمن الخارج ، ويسيرالى الداخل ، « سنريهم آيـاتنا ، فى الافاق ، و فىأنفسهم ، حتى يتبين لهم أنهالحق » وهو أسلوب، غاية الغايات فى الدقة ، والحكمة ، ويفضى بالذين يتقنونـه الى الاسلوب الصحيح ،وهو الاسلوب الطردى ، الذى يبدأ مـن الداخل ، ويسير الى الخارج . والى هـذا الاشارة أللطيفة ، فى الاية السابقة ، حين قال ، جل من قائل، « أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة ، فضاقت دائرة المحرمات ، لذلك ، واتسعت دائـرة المباحات ، على قاعدة الاية الكريمة : « مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » فاذا أستمر السير بالسائر الى نهايته المرجوة ، وهى نقاء السريرة ، واستقامـة السيرة ، تماما ، عادت جميع المحسوسات الى أصلها من الحل

وأنطبقت الاية الكريمة : « ليس على الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، جناح فيما طعموا ، اذا ما أتقوا ، وآمنوا ،وعملوا الصالحات ، ثم أتقوا وآمنوا، ثم أتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » وهذه مرتبة من الكمال تؤدى اليها رسالة محمد الثانية ، حين قصرت عنها رسالته الاولى

امة الرسالة الثانيه المسلمون

ولقد طال الحديث عن رسالتى محمد، وقلنا انه بلغهماجميعا فى مغنى ما بلغ القرآن ، وسار السيرة ، ولكنه اجمل الثانية اجمالا ، وفصل الاولى ، تفصيلا ، وأوردنا الاية الكريمة فى ذلك : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » وقلنا أن الرسالتين مشتملتان ، ومبلغتان فى: « وانزلنا اليك الذكر » . ولكن الرسالة الاولى ورد الامر بتفصيلها فى «لتبين للناس ما نزل اليهم » فمما « آنزل »وهو أدخل فى الرسالة الثانية ، قوله تعالى « يسألونك ماذا ينفقون؟ قل العفو !! » وعليها ، وعلى غيرها ، أنبنى الندب الى الصدقة فى الرسالة الاولى ، ومما «نزل»، وهو ادخل فى الرسالة الاولى « خذ من أموالهم صدقة ، تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » وعليها انبنى تشريع الزكاة فيها ، ومما « أنزل » وهو أدخل فى الرسالةالثانية،قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أتقوا الله ، حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » وتلك مرتبة المسلمين ، فلما لم يطيقوها « نزل »عليهم : « فاتقواالله ما أستطعتم ، وأسمعوا ،وأطيعوا

والنهاية ، وقد بدأ يوم بدأ الصراع بين ارادة الحياة، وأراده الحرية ، وهو ما نسميه بنشأة العرف ، وهذه الفكرة لا تزال تواصل سيرها ، وستبلغ نهايتها على هذا الكوكب يوم يحقق الافراد البشريون السلام ، كل مع نفسه، وذلك بتسليم ارادتهم المحدثة ، الى الارادة القديمة . وسنعود الى هذه العبارة في نهاية هذه العجالة . ولتقرير ان الاسلام ، كدين في عمر البشرية ، فكرة واحدة ، كبيرة ، تشمل البداية والنهاية، يمكن ان تنظر في الاسلام في عمر الفرد البشرى ، فانه من المقرر ان حياة الفرد البشرى تحكى ، بصورة عاجلة ، حياة النوع كله .. فالاسلام ، في عمر الفرد البشرى ، يبدا بالقول باللسان ، والعمل بالجوارح ثم يترقى حتى يصبح اذعانا واعيا، وانقيادا راضيا، بارادة الله وحسن تدبيره . واول مراتب ترقيه ، بعد الاسلام ، الايمان، ثم الاحسان بمراتبه الثلاث ثم الاسلام من جديد وهذه الآيات الكريمات تفيدنا في هذا الباب « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » فالاسلام هنا هو البداية التى هى مرحلة دون مرحلة الايمان . ثم اسمع هذه الاية الكريمة : « يايها الذين آمنوا اتقوا الله ، حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » والاسلام هنا هو نهاية المطاف ، ولقد ندب اليه المؤمنون فلم يطيقوه . فلما بدا عجزهم خفف الله عنهم فنزل « فاتقوا الله مااستطعتم ، واسمعوا واطيعوا » فاستبدل لهم تقوى الله حق تقاته بما يطيقون ، واستبدل لهم الاسلام ، الذى هو تسليم الارادة المحدثة الى

محمد الثانية ستجيء أقرب الى جانب النهاية ، منها الى جانب البداية ، أو هي مما يلي النصرانية ، والحق أن الشبه النظرى بين وصايا المسيح ، ووصايا القرآن ، فى الرسالة الثانية ،كبير ولكن الفرق العملى أكبر ، فأن المسيح حين أوصى بتلك الوصايا الرفيعة ، لم يقم نظاما اجتماعيا ، ولا نظاما حكوميا ، يجعل تحقيق تلك الوصايا امرا ميسورا للافراد ، واما الاسلام فانه ، حتى برسالته الاولى ، قد أقام نظاما اجتماعيا ، ونظاما حكوميا فيهما من التكافل ، والاسماح ، ما يجعل الفرد يستشرف ، استشرافا عمليا ، لتحقيق بعض وصايا القرآن الرفيعة .ونحن الان نستقبل عهدا جديدا فيه نريد لافراد مجتمعنا أن يحققوا كل وصايا القرآن ولذلك نسعى لاقامة نظام اجتماعى ونظام حكومى ، أرقى مما كان لدينا فى عهد الرسالة الاولى، وهذا هو ماعنيناه باعداد المسرح الذى وردت الاشارة اليه آنفا .

الرسالة الثانية
المساواة الاقتصادية

لقد آن الاوان لتفصيل الرسالة الثانية ، وذلك بالنظر فى تكميل تشريع الرسالة الاولى ، بتطويره ليحقق قسطا اكبر من الهدف الدينى ، والعمدة فى التطوير أمران ، حاجة المجتمع الحاضر ، وروح الاسلام ، كما كان يعيشها المعصوم . فاما روح الاسلام ، كما كان يعيشها المعصوم ، فهى الحرية الفردية المطلقه ، واما حاجة المجتمع الحاضر فهى العدالة الاجتماعيه الشاملة ، ولا تتم العدالة الاجتماعية الشامله ألا اذا قامت

على ثلاث مساويات : المساواة الاقتصاديه ، والمساواة السياسيه والمساواة الاجتماعية ، فأما المساواة الاقتصادية ، فهي أن يكون هناك حد أعلى لدخول الافراد ، وحد أدنى ، على أن يكون الحد الادنى مكفولا لجميع المواطنين ، بما فى ذلك الاطفال ، والعجائز ، والعاجزين عن الانتاج ، وأن يكون كافيا ليعيش المواطن فى مستواه معيشة تحفظ عليه كرامته البشرية ، والا يكون الفرق بين الحد الادنى ، والحد الاعلي ، أكبر من سبعة الاضعاف ، حتى لايكون هناك تفاوت طبقى ، يجعل الطبقة العليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة السفلى ، وتحقق المساواة الاقتصادية بالاشتراكية ، وهى عبارة عن زيادة الانتاج ، باستخدام الالة ، وبتجويد الخبرة الادارية ، والفنية ، ثم عدالة توزيع هذا الانتاج ، على الاسس التى سبق ذكرها ، ولا تقوم الاشتراكية الا على تحديد الملكية الفردية بما لايتعدى الى وسائل الانتاج . فللمواطن ان يملك المنزل ، والحديقة حوله ، والاثاث داخله ، والسيارة وما الى ذلك ، مما لا يتعدى الى ملكية الارض ، او المصنع ، أو أى من وسائل الانتاج ، وحتى فى هذه الحدود الضيقة ، تكون الملكية ملكية ارتفاق لاملكية عين . وهذا يعنى أن ينتقل التشريع من آية الزكاة الصغرى « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم » الى آية الزكاة الكبرى « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو !! » و « العفو » كل مازاد عن حاجتك الحاضرة ، من غير ادخار ، ولا كنز ، وهذا ماكان يفعله المعصوم ، وهو روح الاسلام ،

ويجب أن يكون مفهوما ، فأن الملكية الفردية تحدد بماحددناها به ، لتكون الملكية للجماعة ، لا للدولة ، وفى ذلك احتراز من نشوء الحكومة المركزية ، القوية ، ذات الادارة المتشعبة، الكبيرة المتغولة ، التى تفوت على الناس فرص المساواة السياسية فى سبيل المساواة الاقتصادية .. فالملكية للجماعة ، تدار بأساليب التعاون ، يقوم فيها الناس بخدمة أنفسهم، لا ينتظرون من الدولة الا التدريب المهنى والادارى ، والمشورة الفنية ، والاشراف العام للنسق للتعاون بين أجزاء القطر المختلفة ، وكل أمر يستطيع الناس أداءه بدون توسط الدولة يترك لهم أداؤه ، ويتبع المساواة الاقتصادية المساواة فى جميع الفرص وجميع الحقوق

المساواة السياسية والمساواة الاجتماعية

واما المساواة السياسية فان يكون لكل مواطن ، ومواطنة ، فوق سن العشرين مثلا ، حق أختيار من يقومون بأدارة حكومتهم المحلية ، والمركزية ووسائلهم الانتاجية ، على نحو متساو . فاذا ماتمت المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية فأن المساواة الاجتماعية تصبح كالنتيجة، التى تتبع المقدمة . اللهم الا مسائل يسيرة تتوقف على الرأى العام فى المجتمع، وحتى هذا فأن للمقدمات التى تنتج عن المساواة الاقتصادية، والمساواة السياسية ، تجعله يتبع ، بعد حين، يطول، أو يقصر، ولكنه يأتى ، على التحقيق ، وسيكون من واجب الدولة توجيه التطور وحفزه ، وذلك بالتعليم ، والتثقيف حتى يكتسب

الرأى العام حرية ، واسماحا ، يجعلانه لايضيق بأنماط السلوك المختلفة ، مادامت هذه الانماط تتسامى الى الرفعة والتجويد.

العبادة فى الرسالة الثانية الزم منها فى الرسالة الاولى

والدولة ، بالتعليم المهنى ، والفنى ، والدينى ، وبالتثقيف العام والحريات العامة ، تعين الافراد أعانة كبيرة ، ولكن هناك حدا يبدأ فيه الافراد مجهودهم الفردى فى التربية ، والاسلام يقدم المنهاج التعبدى المنقول عن المعصوم ، وهو أكمل منهاج تعبدى عرفته البشرية ، وهو فى الرسالة الثانية ألزم منه فى الرسالة الاولى ، وذلك لان العقل البشرى المعاصر أكثر تطلعا الى الحرية منه فى أى وقت سلف ، ولان الحرية ما اليها من سبيل الا عن طريق تقليد المعصوم ، فى منهاج عبادته ، وكل ماهناك من فرق بين الموقفين : موقف العبادة فى الرسالة الاولى ، وموقفها فى الرسالة الثانية ، أن الافراد البالغين ، الرشيدين ، لا يحملون عليها بالقسر والاكراه وانما يحملون عليها بالقدوة والاقناع ، « لا أكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » والسبب فى ذلك أنه ، فى الرسالة الثانية ، كل شىء وسيلة الى انجاب الفرد الحر ، حرية مطلقة ــ المجتمع ، والاسلام والقرآن ــ والعبادات من باب أولى . فاذا ماقهرنا الفرد ، وحملناه على العبادة بالقسر ، والاكراه نكون قد جعلنا الوسيلة تهزم الغاية منها ، وهو وضع معكوس بطبيعة الحال .

الترقى بين الرسالتين

ان كل فرد يبدأ بالاسلام الذى هو مجردالشهادة باللسان، والعمل بالجوارح فى تقليد النبى ، ثم يتمكن التصديق من قلبه ،بتوكيد العمل ، فيصير مؤمنا ، ثم يزيد الايمان ،فيدخل فى طرف الاحسان ، الغليظ ،ثم يترقى فى مراحل الإحسان . وقد سئل المعصوم عن الاحسان فقال « الاحسان أن تعبدالله كأنك تراه ، فأنلم تكن تراه فأنه يراك »فهذه ثلاث مراحل . المرحلة الاولى مما يلى الايمان وهى ان يؤمن السابر بـان الله يراه ، وهوماعبر عنه النبى بقوله «فانه يراك ».والمرحلة الثانية تأتى بعد ذلك ، حين يقوى الايمان بالمرحلةالاولى،وهى أن يبدأ يقين السابر بأنه يرى الله ، وهو ماعبر عنه النبى « كأنك تراه » ثم المرحلة الاخيرة ، وهى أن يرى السابر الله وهو ماأشار اليه النبى بقوله « فأن لم تكن تراه » ولذلكقال بعض العارفين « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن ، فانك تراه » يشير بذلك الى أنالانسان محجوب بأوهام نفسه ، عن الله فأن فنى عنها ، فانه يرى الله . ورؤية الله هى مرتبة الاحسان التى هى قمة الاسلام ، واليها الاشارة فىقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين » واليها الاشارة أيضا بقوله تعالى « ليسعلى الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، جناح فيما طعموا ، اذا ما أتقوا، وآمنوا ، وعملوا الصالحات ، ثم أتقوا ، وآمنوا ، ثمأتقوا، وأحسنوا ، واللهيحب المحسنين » فاذا بلغ السابر مرتبة

الاحسان هذه، فقد أصبح مسلما فى المستوى المقصود بقولـه تعالى :« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسـن، وأتبع ملة ابراهيم حنيفا ؟ وأتخذ الله ابراهيم خليلا » .

وبقوله تعالى : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن،فقد استمسك بالعروة الوثقى » فان جميع المخلوقات مسلمة وجهها الى الله ، ولكنها غير محسنة ، أى غير عالمة بـذلك . والقـرآن يحدثنا باستسلام جميع المخلوقات ، فيقول : « ولله يسـجد من فى السموات ، والارض ، طوعا وكـرها ، وظـلالهم بالغـدو والاصال . » ويقول : « انى توكلت على الله ، ربى وربـكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربى على سراط مستقيم » ويقول « وان من شيء الا يسبح بحمـده ، ولـكن لا تفقهـون تسـبيحهم . »

الاسلام علم وعمل بمقتضى العلم : والا فلا

وفى الاسلام العلم معناه العمل واى علم لا يستتبع العمل فهـو علم ناقص، ولذلك فان مرتبة الاحسان مرتبة تقتضى الاستسلام، الراضى ، بارادة الله ، الهادية ، ومعنى ذلك فى الحياة اليوميـة ان الانسان يعمل الواجب المباشر ، جهد الاتقان ، والاحسان ، فان جاءت النتيجة وفق ما يريد فـذاك ، ولله الحمد ، وان جـاءت النتيجة على خلاف ما يريد ، جعل ارادته تابعة لارادة الله وحده، ورضى بارادته ، ثقة به ، وايثارا له ، فان لم يقدر على الرضـا ، ففى الصبر خير كثير ، وليس وراء الصـبر الا السـخط ، وكل ساخط معذب . ويحضرنى ، فى هذا ، حديث قدسى طريف ، فانه

قيل ان الله ، تبارك ، وتعالى ، قال لداود « ياداود ! أنك تريد ، واريد ، وانما يكون ما اريد ، فان سلمت لما اريد ، كفيتك ما تريد ، وان لم تسلم لما اريد ، اتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون الا ما اريد »

فالصبر على ارادة الله مرتبة من الاحسان فى طرف البداية ، والرضى بارادة الله مرتبة من الاحسان رفيعه . قال تعالى لنبيه الكريم : « فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، واطراف النهار ، لعلك ترضى . » فهو يامره بالصبر على الارادة الالهية حين تجرى بما لا يريد ، ويهديه الى الحمد ، ويرشده الى الاستعانة على الصبر والحمد بالصلاة ، ويمنيه الرضا ، « لعلك ترضى »، برضا الله عنك ، ومن رضى الله عنه غمره بالالطاف ، واغدق عليه الفيوضات، وجعله مستغرقاً لحظته التى هو فيها، غير مشتغل بالمستقبل بالتمنى ، ولا بالماضى بالاسف . ومن كان كذلك فهو الحر ، المطلق الحرية .

التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة

قلنا، عند الحديث عن نشأة المجتمع البشرى، وفى نفس الوقت الذى خدم فيه العرف الاول الفرد ، بان قوى ارادته وسيطرته على نفسه ، خدم المجتمع بان صان حقوقه وجعل تماسكه وتضامنه ممكنا ، فكأن المجتمع البسيط ، فى حدوده البسيطة ، قد وفق بين حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة . ومنذ ذلك اليوم ،

والى يوم الناس هذا ، لم يستقم ميـزان التوفيـق بين هاتـين الحاجتين ، فى اى فلسفة اجتماعية معاصرة ، أو سـالفة ، ولـكن الاسلام ، فى أعلى مستويات المجتمع المعقـده ، يقـدم صـورة متقنة من هذا التوفيق الدقيق .

اسلفنا القول بان حاجةالفرد البشرى هى الحريـة ، الفردية ، المطلقة . ونقرر الان ان حاجة المجتمع هى ان يصبح اداة ، صالحة لتحقيق الفرد الحر ، حرية مطلقة ، ذلك بان المجتمع وسيلة الـى هذا الفرد ، وكل ما يمكن الوسيلة من تحقيق غايتها فهـو مـن حاجتها وقد خططنا المجتمع المقبل قبل قليل فى هذه العجالة ونتحدث الان عن الفرد الحر حرية مطلقة .

الفرد الحر حرية فردية مطلقة

وليس هناك ادنى شك انه ، بعد كل ما يقال عـن المجتمـع ، ومساعدته للفرد ، فان الفرد ، فى آخر المطـاف ، لا يمـكن ان يتحرر الا بمجهوده الفردى ، ذلك بانك يمكنك ان تؤمن حيـاة الفرد من الخوف ، ومن الفقر ، ومن الجهـل ، ومن المـرض ، وستبقى بعد كل هذا العقد النفسية الموروثة والمكتسبة ـ العقد الموروثه منذ فجر الحياة الانسانية ، حين بدأ المجتمع ، واوجبت على الافراد الواجبات ـ وهى عقد لا حد لها ، وان كانت حدتها تقل كلما ارتقى المجتمع وقلت ، تبعا لرقيه ، العقد المكتسـبة فى حياة الفرد البشرى .. فان هذه العقد النفسية ، بنـوعيها هى غول الحرية ، لانها قسمت الشخصية البشرية الى ظاهـر ، يرضى مقاييس المجتمع ، والى باطن ، لـو اطلـع عليه الناس

لتقاطعوا ، وتدابروا •• فهذه القسمة المنكـرة « فى الشخصية البشرية » هى التى تحتاج الى المجهود الفردى لتلتئم ، وتكون بالتئامها كلا واحدا ، متكاملا ، فانه ، كما قال المسيح ، « البيت المنقسم لا يقـوم »

وقد سلف القول بان القرآن ، والعبادات المأثورة عن المعصوم، هى وسيلة تنفيس هذه العقـد ، فان تقليد النبى فى اسلـوب حياته ، تقليدا متقنا ، يفتح مغاليق القرآن • وفهم القرآن يرسل النور فى سراديب العقل الباطن ، حيث تكبل الرغـائب السجينة من ملايين السنين ، بعيدة عـن النور ، والحـرارة ، والحياة ، وكلما تغلغل النور فى تلك السراديب ، كلما انبعثت الشخصية البشرية ، حرة ، طليقة، كأنما نشـطت من عقـال • ويجب ان يكون مفهوما ، ان تقليدنا محمدا ليس نهاية القـوة الخلاقة ، المودعة فينا ، وانما تقليدنا اياه ، تقليدا متقنا ، وسيلتنا للتحرر عن التقليد ، لان عبادتنا ان هى الا وسيلة لتحقيق فـرديتنا ، التى لا يشابهنا فيها اى فـرد ، من افـراد القطيـع البشرى ، والتقليد ، فى ارفع صوره ، وعلى خير مايكون ، انما هو انكار للفردية • ولا تحقق الفردية بانكارها ، بالطبع •• فكـما ان الكبت، فى اول اطوار النشوء البشرى ، وسيلةالى التحرر مـن الكبت، فى اعلى مراقى هذا النشوء، فكذلك التقليد،فى اول طريق السالك المجود ، وسيلة الى التحرر عن التقليد ، عند الاستواء•

وكل سالك طريق الحرية يبدأ بالاسلام ، ثم يرتفع الىالايمان » ثم يرقى فى مراقى الاحسان المختلفة ، كما بينا ذلك قبل حين ،

حتى ينتهى الى الاسلام ، مرة ثانية •• والقرآن يخاطبه ، فى كل مقام من مقامات سيره ، خطابا فرديا ، فمثلا عندما يقرأ السالك المجود قوله تعالى « لمن شاء منكم ان يستقيم * وما تشاءون الا ان يشاء الله ، رب العالمين » يفهم منهما ، فى اول الطريق ، ان له مشيئة مستقلة بالاستقامة ، او الالتواء ، فيجتهد فى الاستقامة ، فى تشمير ، وجد ، فاذا نضجت تجربته ، واستوى ، يعلم ، يقينا ، انه لايملك ، مع الله ، مشيئة ، ويصبح الخطاب فى حقه « وما تشاءون الا ان يشاء الله ، رب العالمين » مع فهم اكيد للحكمة فى قوله تعالى « لمن شاء منكم ان يستقيم »وتصبح هذه القولة ، فى حقه ، منسوخة بالقولة الثانية ••

الصـــلاة الشرعية

والخطاب بالصلاة وارد هكذا فى القرآن : « اتل ما اوحى اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء ، والمنكر ، ولذكر الله اكبر ، والله يعلم ماتصنعون » و « ذكر الله » القرآن ، وقد قلنا ان الصلاة وسيلة الى فتح مغاليقه ، ولذلك قال « ولذكر الله اكبر » •• وكل العلم موجود فى قوله تعالى فى آخر الاية «والله يعلم ما تصنعون »، وهى اشارة الى تمام التسيير الذى باستيقانه يتم الاسلام •• وقال تعالى مخاطبا المؤمنين : « فاذكرونى اذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون * يايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين » « استعينوا بالصبر ، والصلاة » يستعينون على ماذا ؟ على الرضا بارادة الله ، كما سبق القول عن الآية

« فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح ، واطراف النهار ، لعلك ترضى »

وقال تعالى، مخاطبا المؤمنين « ان الصلاه كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ومعنى « موقوتا » هنا ، انها ، على المؤمنين فرض له اوقات يؤدى فيها ، فاذا ارتفعوا بها ، وبالعبادات ، والاعمال جميعا ، وبالقرآن ، عن مرتبة الايمان ، الى مرتبة الاحسان ، حيث يرون الله ، تبارك ، وتعالى ، فقد اصبحوا أكثر من مؤمنين ـ اصبحوا مسلمين ـ واصبح عليهم ان يقلدوا الله ، لا ان يقلدوا محمدا ، كما قال المعصوم « تخلقوا باخلاق الله ، ان ربى على صراط مستقيم » واصبح معنى « كتابا موقوتا » فى هذه الحالة ، انها فرض له وقت ينتهى فيه • ويجب ان يلاحظ ان انتهاءها لايكون تشريعا عاما ، لان تلك مرتبة فردية ، لا مرتبة عموم • ولرب قائل يقول ، ولماذا لم تنته الصلاة بمحمد ؟؟ والجواب هو ان محمدا ليس مقلدا وانما هو اصيل ، وكل من عداه مقلد له • وهو فى اصالته يستطيع ان يحقق فرديته باسلوب الصلاة ، كما يطلب كل منا ان يحقق فرديته بطريق خاص ينفتح له لسياسة حياته ، وفق الحق والصدق • ولقد اشار القرآن الى تحقيق النبى الكريم لفرديته بقوله تعالى « ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا » وهذا المقام المحمود هو الذى قامه يوم عرج به ، وانتهى الى سدرة المنتهى ، حيث قال

الله فيه « ما زاغ البصر وما طغى » • « مـا زاغ البصر » اى مـا ارتد الخاطر الى الماضى ، « وماطغى » اى ماامتد الى المستقبل ، ينشغل به ، وانما استغرقته اللحظة الحاضرة ، بالشهـود ، والرؤية فكأنه كان وحدة ذاتية، في وحدة مكانية ، في وحـدة زمانية • ولقد فرضت عليه الصلاة في ذلك المقام ، ولما عاد الى طبيعته البشرية اصبحت الصلاة معراجا يوميا له ولامتـه ، الى ذلك المقام الرفيع الذى قامه بين يدى الله ، تبـــارك ، وتعالى • ولما كان هذا المقام هو مقام تحقيق الفردية ، أو قل ، مقام وحدة الذات البشرية ، وهذا المقام مطلوب مـن كـل مسلم ان يسمى اليه ، فقـد اصبحت الاصـالةوالتحـرر مـن التقليد ، في اخرياتالسير اليه ، امرا لامناص منه • •

وحدة الوجود

قلنا ، في صدر هذا السفر ، انا نريد ان نرى ، هـل يستطيع العلم التجريبى الروحى ان يرد ظواهـر الاخـلاق البشرية الى اصل واحد ، كما رد العلم التجريبى المادى ظواهر الكون المادى الى اصل واحد ، فيتم بذلك الاتساق ، والتلاؤم ، بيـــن الاخلاق البشرية ، والسلوك البشرى ، وبين البيئة المـادية التى يعيشون فيها ، وينتهى بهذا التلاؤم • هذا النشوز الذى بـدد المساعى البشرية ايدى سبا ، وقطع ارحام الانسانية بين الناس؟ ولعله قد اتضح ، شيئا ما ، ان الاسلام يقوم ، من الوهلة الاولى ، على تسليم الارادة البشرية المحـدثة الى الارادة

الالهية القديمة « ومــن يسلم وجهه الى الله ، وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى • » وتجربتى الخاصة لم تدع لى مجالا للشك فى صحة هذا الامر ، ومن ثم فانه عندى ان جميع ظواهر السلوك البشرى ، من خير وشر ، يرجع الى اصل واحد هو « ارادة الله القدير » • وفى الحق ، ليس الشر اصلا ، وانما الاصل الخــير ، وما الشر الا نتيجــة جهلنا الذى اوهمنا اننا نستقل بارادة ، فاذا ارتفع هــذا الجهل بالتجربــة الروحية ، فسيصبح عملنا تجويد الواجب المباشر ، والانشغال باحسانه ، وتجويده ، عن التمنى ، والتأسف ، وبذلك نحقــق السلام ، كل مع نفسه ، ومن ثم يتحقق فى الارض السلام • •

استمع الى القــرآن ، كيف يحدثنا ، ويهــدينا الى السلوك البشرى الرصين : « ما اصاب من مصيبة ، فى الارض ، ولا فى انفسكم ، الا فى كتاب ، من قبل ان نبرأها ، ان ذلــك على الله يسير * لكيلا تاسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكـــــم والله لايحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول ، فان الله هو الغنى الحميد »

حسن الخلق حسن التصرف فى الحرية

وما هى الاخلاق ؟؟ هى ، فى سبحاتها العليا ، حسن التــصرف فى الحرية الفردية المطلقة ! ولذلــك فقد قال المعصوم : « حسن الخلق خلق الله الاعظم » ومن حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقــة تركك ما لا يعنيك ومما لا يعنيك اللحظة المقبلة ، واللحظة الماضية ، ولايعنيك الا اللحظة الحاضرة ، فاذا ملاتها بالعمل المثمر

المتقن ، ثم سرت بحياتك جميعها مشتغلا ، فقط ، بالواجب المباشر، محسنا له ، جهد طاقتك ، فانك تحرزوحدة شخصيتك، وتنتصر على الخوف ، والقلق ، وتحقق ، مع نفسك ، السلام• وتكون حياتك بركة عليك ، وعلى الانسانية جميعا ، من حيث تشعر انت ، أو لا تشعر •• فان كل حياة سليمة ، خصبة ، تخصب الحياة جميعها ، بمجرد وجودها فيها ••

خاتمه

اما بعد ، فقد يرى اناس ان هذا الحديث غريب • فلا يعجلوا انفسهم ، ولا يصدروا الاحكام ، و ، قبل ان يتهموا انفسهم ، يبادروا باتهام الاخرين • فان هذا الحديث حق ، عندى ، وصدق ، واني لارجو الله له ، ان يكون حقا ، عنده ، وصدقا •• وما ذلك على الله بعزيز •

الحزب الجمهورى

امدرمان ـ الموردة ص ب ٤٦